الرمز في شعر سامي مهدي

قراءة في مجموعة (بريد القارات)

م.م. حمد محمد فتحي إلياس الجبوري (*)

في مصطلح الرمز

قبل أن نخوض في موضوع الرمز في شعر الشاعر (سامي مهدي)، لابد لنا أن نعرف ما الرمز؟ ولماذا لجأ الشاعر إليه؟ وهل أن الشاعر رمزي بالمعنى الحقيقي في المدرسة الرمزية؟

فالرمز هو "وسيلة الإيماء بالمشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح" (1)، وهو الذي ينقل اللغة الشعرية إلى فضاءات جديدة، ويبعث في مفرداتها إيحاءات متنوعة، والرمز أيضاً هو "الإشارة والإيحاء، وهو لن يكون غير ذلك؛ لأنَّ البشر لم يصطلح على تلك الرموز إلا لوجود رابطة أو قرينة معنوية بين الدلالة والمدلول" (2).

فالميدان الأساس لعمل الرمز هو الشعر، والمقصود بالرمز في هذا الإطار "الدلالة على ما وراء المعنى الظاهري، مع اعتبار المعنى الظاهري مقصوداً أيضاً

(*) مدرس مساعد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1978: 3.

(2) الرمزية في الأدب والفن، إسماعيل ارسلان، مكتبة القاهرة الحديثة، د، ت: 2.

فالطلل في الشعر العربي رمز لعواطف إنسانية وفردية عميقة، وبكاء الطلل لا يعني بكاء المواد التي يتكون منها لذاتها"[3].

وعلى أساس دلالته ومعانيه ومنطلقاته تأسست الرمزية، وهي "مذهب في الأدب والفن، ظهر في الشعر أولاً، يكون بالتعبير عن المعاني بالرموز والإيحاء؛ ليدع للتذوق نصيباً في تكميل الصورة أو تقوية العاطفة، بما يضيف إليه من توليد خياله"[4].

ووظيفة الرموز الشعرية يجب أن تحافظ على الموازنة بين الحقيقة والمجاز؛ لأن "الرموز من ناحية الأداء صور متناقلة يطغى فيها المجاز على الحقيقة، ويطغى فيها التلميح على التصريح، والمعاني صور غير حقيقية ولكنها ترافق الحقيقة كما يرافق الظل ما يجسمه وهذهِ المعاني أشباح أشياء محسوسة، لذلك لا نستطيع أن نعبر عنها بطريقة صريحة؛ ولذا كانت الرموز أنسب لهذا التعبير"[5].

وهكذا فالعلاقة بين الرمز وما يشيرُ إليه هي دائماً علاقة إيحائية، لكن "فيه ما يؤهله لأن ليتطلب الانتباه – أيضاً – إليه لذاته كشيء معروض"[6].

(3) فن الشعر، إحسان عباس: 238، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ط6، 1979.

(4) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون: 373، ط2، دار الأمواج، بيروت، 1990.

(5) الرمزية في الأدب والفن: 106.

(6) الصورة في شعر لطفي جعفر أمان، عبد الكريم أسعد قحطان، ط 1، دار الثقافة العربية، الشارقة - الإمارات العربية المتحدة، 2002.

إذ في أدب كل أُمة رموزٌ تقليدية: ففي العربية يوجد القمر، والسيف، والهلال، وهكذا. وهذه جميعاً تحمل معاني يعرفها الجميع. لكن الشاعر الرمزي لديه رموزه التي تخصه في بناء رموزه دون غيره[7].

والشاعر استخدم الرمز كثيراً في شعره؛ لأن الرمز بديل للتعبير المباشر، فاستخدم الأشياء الطبيعية مثل: (الأرض، والشجر، والتراب، والمطر) لما لها من أبعاد وإيحاءات رمزية؛ لأن الطبيعة تستمد حيويتها وقيمتها من تعامل الإنسان معها، وما يهمنا في مجال الرمز، هو كيفية استخدم الشاعر (سامي مهدي) في مجموعته الشعرية (بريد القارات) للرمز لأشياء لا يستطيع أن يقولها بصراحة تامة أو بشكل مباشر. بما يضيف إليه من توليد خياله، وهكذا فالعلاقة بين الرمز وما يشيرُ إليه هي دائماً علاقة إيحائية.

رموز الموت

إن طبيعة الأرض جعلت أسباب الحياة مهددة بأسباب الموت، فالخصب مهدد بالجفاف، والأمن بالغزو، والاستقرار بالتنقل، والبهجة بالحزن، مما يجعل الشاعر قلقاً وهو يرى كل شيء حوله يتغير وينتهي، الجديد والشباب والحب[8].

وإذا كانت مفردات الحياة كثيرة في ذهن الشاعر فإنَّ مفردات الموت كثيرة أيضا فالشاعر العربي الحديث حين واجه الكون وظواهره، لم ينس ظاهرة الموت

(7) الصورة في شعر لطفي جعفر امان: 782.

(8) ينظر: الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986: 150

التي تبدو وكأنها مرتبطة بتلك الظواهر [9] ولم يكن الشاعر (سامي مهدي) لينظر إلى الموت نظرة فلسفية فقط فهو عنده أيضاً مظهر طبيعي يعرض للأحياء فيتركهم معطلي الأجساد والأنفس، فالشاعر يخشى الموت ولا يأتلف معه على الرغم من اعتياده على رؤية صور عديدة له، وهو إنما استعمل الرمز من خلال معانٍ كثيرة "فموت الأحبة يشعر الشاعر بالحزن والفجيعة، فاستعمل لها عنوانات كان لها اثرٌ بارزٌ في إظهار تلك المعاني والأفكار وإبرازها من خلال آلية الرمز؛ لأن بناء الرمز أنسب طريقة للتعبير" [10] لذا يمكن القول إنَّ التعبير عن المعاني بالرموز والإيحاء يجعل للمتلقي نصيباً في تكميل الصورة، أو تقوية العاطفة، بما يضيف إليه من توليد خياله، كما أن هدف بناء الرمز هو "التعبير عن المعنى المجرد بالصورة المحسوسة لتقريبه من الذهن"[11]

رمز هذيان الأرض

في قصيدة بعنوان ((هذيان الأرض)) يتكلم الشاعر عن أن "فعل القول العاطفي يتحول – هنا - إلى (هذيان)، وذلك لأن إيحاءات مفردة (الأرض) تغادر (الأنسنة) إلى أن تكون وحشاً يلهث خلف طريدته، ويسكن عوالم سفلية، ويدور في أنفاق مظلمة[12] إذ يقول[13]:

(9) ينظر: المكونات الأولى للثقافة العربية، د.عز الدين إسماعيل، مطبعة الأديب البغدادية 1972 سلسلة الكتب الحديثة: 126

(10) الرمزية في الأدب والفن، إسماعيل ارسلان: 6

(11) البيان الحديث في علوم البلاغة والعروض، روز غريب ، بيت الحكمة،ط2, بيروت،1996: 138

(12) أسلوبية البناء الشعري (دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي) أرشد علي محمد، ، دار الشؤون الثقافية، بغداد،ط1، 1999: 143

(13) بريد القارات، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1989: 11

كانت الأرض تهذي

وأسمعها من عوالم سفلية وهي تهذي

وتبحث عن شبحٍ هاربٍ في الزحام

كانت الأرض تهذي

وتلهث خلف طريدتها،

وهي تنقاد من نفقٍ نحو آخر،

تبحثُ عن مدخل لا تراهُ

وتُوغلُ في شركِ من ظلامْ

ما الذي لا تطاردهُ هذه الأرضُ؟

من لا تطاردُه مِن بنيها

وتقتله في مكانٍ مقام؟

علَها تبحثُ الآن عني،

إذن، هل ستلقى سوى جَدَثٍ دارسٍ

وعظام؟!

كنتُ حاولتُ تغييرُها ذات يومٍ

وما كنتُ أحسبُ أني أُرمِمُ قارورةً حُطمَتْ

ومشى جحفلُ اللهِ فوقَ الحطامْ..

آه لو أنني لم أحاول سوى فهمها

لاختزلتُ، إذن، ما تمددَ

بين بدايتها ونهايتها من فراغٍ،

وما قلتُ ما قلتُ في هجوها من كلام

كانت الأرض تهذي

وتطردُ أشباحنا من منازل قد أُخليت لسوانا

وترجو لهم، لسوانا، السلام[14]

لذا يبدو لنا أن الشاعر سامي مهدي قد تجاوز الأبعاد المعجمية للدوال، ليحقق دلالة أبعد مما هو مألوف بين الناس، لينجز بذلك المستوى الشعري للرمز، إذ أن البقاء في أسر الدلالة المعجمية للرمز يقتل الايماء الذي تمت الإشارة إليه، لكن لا يسمح للشاعر أن يلغي الدلالة المعجمية تماماً وينفي أي أثر لها ويثبتها، لأنها تظل هي الهادي الوحيد الذي تستعين به في الوصول إلى المدلول الجديد[15].

حيث استعمل الشاعر لفظة (الأرض) بوصفها رمزاً استعان به ليعبر عما في نفسه ويظهر ما يجول في خاطره، فما المقصود بهذه اللفظة؟ أهي (الأرض) الكوكب الذي نعيش عليه؟ أم قصد به فتاة كانت الأرض رمزاً لها؟ أم قصد به شيئاً آخر؟ هذا ما سنحاول معرفته والوقوف عليه من خلال قراءتنا لقصيدة (هذيان الأرض) وتأملنا فيها وتحليلنا. "فكانت الطبيعة نبعاً للرموز والأساطير

(14) بريد القارات: 12

(15) ينظر: الغموض في شعر محمود درويش وأثره في تلقي النص الشعري، دراسة في شعر محمود درويش، سامح رواشدة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مج14، ع 5، 1999، 377.

لا نهاية له لقد احتضنت، منذ البدء، الفعل الإنساني: تثريه، وتنميه، وتحاوره. وبسحرها وجلالها الغامض الطري كانت مصدر تشوقه إلى المطلق والسامي والبعيد"[16].

إذ أن الشاعر سامي مهدي اتخذ من (الطبيعة) رمزاً، فجعل (الأرض) مناطاً لحديثه، وبؤرة لقصيدته، ومحوراً لها، فالشاعر لم ينتزع رمزه من جدار قديم، ولم يستله من أسطورة أو خرافة، ولم يلجأ إلى تاريخ أو تراث ديني أو أدبي يقترض منه.

لقد اشتقه من حياته هو، من إيقاع الطبيعة التي عاش فيها [17] فكانت الأرض رمزاً استمده الشاعر من الطبيعة ليعبر عن كوامن نفسه وما يجول في خاطره، إذ عاش الشاعر الحرب التي اندلعت بين العراق وإيران، وكان الموت يخطف الناس و يطاردهم، فاستعار الشاعر (الأرض) للموت، فما الرابط بين الموت والأرض؟ ولماذا اختار الشاعر هذه اللفظة (الأرض) ليرمز بها عن (الموت)؟ ربما يرى الشاعر أن الموت كان سببه الأرض، فمن تخطفه الموت كان نتيجةً لدفاعه عن الأرض، فعبر الشاعر باختياره لفظة (الأرض) عن معنيين في آن واحد فالموت كان سبب الأرض، والأرض كانت معادلاً موضوعياً له.

ولم يقف الشاعر عند هذا بل امتد ليحدد معالم هذا الرمز، ويصوره لنا، فالأرض تهذي. حيث بنية الفعل المضارع (تهذي) الذي دل على الحركة والهذيان، فضلاً عن الاستفهامات التي لا يقصد بها السؤال، بل إنها تجيب عن تساؤل "من

(16) في حداثة النص الشعري، علي جعفر العلاق، الأردن – عمان، 2003: 51.

(17) المصدر نفسه: 51.

تكون الطريدة"؟ إن الاستفهامات تصرح أن (الأرض) تطارد الجميع، ويعبر عن ذلك (الجميع) بصيغة البنوة (بنيها)[18].

ومثل هذا التعبير يبرز الإحساس الفاجع، فالأرض أُم للبشر، وهذه العلاقة الأمومية مبررة بفعل الارتباط الوجودي للبشر بها، غير أنَّ المنتظر من طبيعة الأمومة الرأفة والحب والحنان، وهذا ما لا يعطيه النص، فالأرض تلهث بوحشية مفزعة للفتك بأبنائها.

لقد تم تأشير المسلك المنتهج في خلق اللامباشرة الدلالية عند الشاعر، وإبراز (الأرض) رمزاً وجودياً عن الحياة الإنسانية بوصفها رحلة مرصودة من قبل الشاعر للمواكب البشرية.

رمز أسئلة الأرض

قد تغدو الأرض محطة الرحلة الإنسانية منذ الخليقة، تلك الرحلة التي ارتبطت مع الأرض ارتباطاً وثيقاً، فمن أديم الأرض، خلق البشر وعلى أديمها عاشوا، وفيها سيدفنون ميتين، وخراب الأرض يرتبط معه خراب المسيرة الإنسانية وهذا ما أكده الشاعر برموزه في قوله[19].

إلى أين تمضي بنا هذه الأرضُ، هذا القطارُ

المعبأ بالنمل والقمل، هذا القطارُ الرهيبْ

إلى أين تمضي بنا، وبما حملت معنا من متاع عجيب؟

(18) ينظر: أسلوبية البناء الشعري، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي: 143.

(19) بريد القارات: 13.

وأين ستلقي حمولتها عند أي المحطات؟ ماذا

ستفرغ؟ ماذا ستُبقي؟ متى؟ كيف؟ ما من مجيب!

سؤالٌ قديمٌ؟!

أجل، والجواب قديم!

ولكن متى كانت أسرع مما هي اليومَ؟

أضيقَ مما هي اليومَ؟

أثقل..

أحفل..

أغرب..

أرهب..؟

هل كانت الأرض هذا الجحيم؟![20]

يستمر الشاعر في استعماله مفردة الأرض رمزاً للموت فهي وان كانت المثوى الأخير لنا وهذا نتيجة للموت ولكن الشاعر يجعلها هنا هي السبب، ويشبهها بالقطار المعبأ بالنمل والقمل، هذا القطار الرهيب، الذي أضفى له صفات في غاية السوء والرهبة فجعله معادلاً عليه معنوياً للأرض (التي بدورها رمز للموت، واعتمد الشاعر في ذلك على بنية الجملة الاستفهامية التي تعمق المجهول وتجمع بين التردد واليقين/ فهو لا يملك أدنى معرفة عن أشياء عدة: (إلى أين تمضي، وبما حملت معنا من متاع عجيب؟ وأين ستلقي حمولتها عند أي المحطات؟ ماذا ستفرغُ؟

(20) بريد القارات: 13

ماذا ستبقي؟ متى؟ كيف؟) لينتهي بذلك إلى حقيقةِ مفادها أن لا يجيب على سؤال قديم، ولكن الجواب قديم، ثم يطرح بعد ذلك الشاعر عدداً من الأسئلة ليعبر عن ضيقه وضجره، ويرى فيها رهبة وثقلاً أكثر مما مضى، فهل كانت الأرض هذا الجحيم؟ ليطرح سؤالاً أخيراً لا ليسأل به ولكن ليتعجب من حال الأرض، وكان للفعل (كانت) دلالة زمنية على الماضي، ليكون في مجال مقارنة هل كانت في السابق جحيماً رهيباً كما هي الحال اليوم.

وأفاد الشاعر من بنية الجملة الاستفهامية ليعبر عما في نفسه وليجعلها طريقة لنقل ما يشعر به، ويمضي أبعد من ذلك إذ يضفي الشاعر على الأرض أوصافاً عبر هذه الجمل الاستفهامية، فالأرض (قطار رهيب) تمضي بنا – أسرع، أضيق، أثقل، أحفل، أغرب، أرهب) فاستمد الشاعر رمزه من الطبيعة ورسم الشاعر صورة رمزه بأوصاف غير مباشرة في بداية القصيدة، فهو جعل الأمة تشبه القطار واسقط الأوصاف على القطار (المعبأ بالنمل والقمل، هذا القطار الرهيب) ليصف من خلاله الأرض فكانت أوصافه للقطار أوصافاً غير مباشرة للأرض، وبعد ذلك ينتقل إلى الأوصاف المباشرة للأرض (ستفرغ، أسرع، أضيق، أثقل، أحفل، أغرب، أرهب) ويبدو أن الأرض قد شكلت له رمزاً من الطبيعة، وكانت هي المحور الأساس التي تضمنته مجموعته الشعرية، فضلاً عن ذلك أن القطار، وسيلة النقل، المرتحل من محطة إلى أخرى، يأتي رمزاً بدلالة الرحلة أولاً ليتشارك مع الأرض، ولكن الشاعر يضيء جانباً آخراً، ويلقي فيه قدراً ملحوظاً من الرؤية إلى العالم، فحمولة القطار معبأة بكائنات غير بشرية (= النمل والقمل) وهذا رمز لتقزيم البشر، فضلاً عن الإحساس بالكثرة والاحتشاد، فيما بين هذه الكائنات والبشر، "ولان العلاقة بين القطار الضخم والنمل والقمل الصغير جداً، علاقة لا

منطقية، فإن هذه السمة هي رمز للمقاربة لعلاقة البشر بالأرض، تدعو الى الإزدراء والسخرية تتجاوز ذلك "لتكون علاقة كثيرة الفزع عندما تغدوا بين طريدة ومفترس"[21].

رمز الرحيل

المقصود "بالرحيل رمزاً هو الموت الذي يشبه فراراً بعيداً يحول دون عودة الزائر"[22]، لأن الرحيل هو معنى من معان الموت، وقد يستطيع المرء أن يؤجل ذهابه إلى حيث يريد، "ولكن الذاهب الى الموت محكوم بالذهاب المتمثل بضروس الحروب والمنايا المتعاقبة" [23] التي ابتلي بها المجتمع العراقي وذاق ويلاتها ومآسيها، نتيجة السياسة الخرقاء، فعنوان (الرحيل) مثلاً، أخرجت إخراجا رمزياً في عدد كبير من الأبيات نتوقف عند مقاطع القصيدة بقوله: [24]

رحلوا كُلهم قبل هذا المساء

رحلوا في الغبار الذي انبث في قطرات المطر

رحلوا في المياه التي انسربت في الحفرْ

رحلوا في رياح الفصولْ

رحلوا في لهاثِ الخيولْ

رحلوا في الكلام

---

(21) اسلوبية البناء الشعري : 140

(22) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ: 172.

(23) المصدر نفسه: 172.

(24) بريد القارات: 13

رحلوا في السلام

رحلوا، رحلوا في الخفاء.

يبدو من خلال هذا المقطع، ارتباط القصيدة أي (الرحيل) بالموت من بعض المفاصل الرئيسة التي تشكل منطلق الرمز؛ لذا فإن الموت وفقدان الأحبة والناس قد أثر في الشاعر كثيراً، وهو لا يحب ما آلت إليه الأمور، إنما ليتخذ له رموزاً يسقط عليها ما يريد أن يوصله من فكرة عن الموت، فأتخذ الشاعر (الرحيل) الذي هو نتيجة الموت ليكون رمزاً عن الموت، فضلاً عن استخدام بنية الفعل المرتبط بالضمير (واو الجماعة) (رحلوا) بينما تعتمد أغلب الأسطر تركيباً واحداً في بدئها هو (رحلوا + في) وهذا هو الثابت المتكرر، لأن في التكرار تجاوز حدود المألوف في اللغة وفي القول، وهذا شكل من أشكال الانزياح أو الانحراف الذي يعطي النص شعريته ويبرز جوهره بوصفه عملاً إبداعياً يتجاوز اللغة العادية إلى لغة مجازية تضع المبدع والشعر أمام إشكالية التأويل بتعدد الاحتمالات والمعاني [25]، ودلالة الأفعال تشي بمثل هذا التمازج، وبهذا كان الرحيل نتيجة، ينبغي للإنسان تهيئة نفسه إلى سفر بعيد لا إياب بعده هو الموت.

رموز صور الموت

إن نظرة الشاعر العربي الحديث (سامي مهدي) للموت تتلون بألوان ورموز شتى تتضح من خلال رؤية الشاعر وطبيعته، وتسهم هذه الرموز والألوان في تكوين خيال الشاعر لحظة خلق رموز الصورة الفنية [26]، ولعل رمز صور الموت

(25) ينظر:تحليل الخطاب الشعري، نور الدين السد، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، العدد 8، سنة 1999، ص107.

(26) الصورة في شعر لطفي جعفر أمان، عبد الكريم اسعد قحطان:70.

كان ادعى لتخيل الشاعر من رمز الصور الأخرى التي يثيرها الشاعر ولكنها لا تستفزه، لقد استعار الشاعر رمز الموت نفسه صوراً للحياة الاعتيادية كالمسافر، والرحلة، ونزيف الشجر؛ لأن في الرمز "وسيلة لإدراك ما لا يستطاع التعبير عنه بغيره، فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له معادل لفظي" [27]. كما في رمز المسافر.

رمز المسافر

يبدو أن الشاعر في قصيدته (المسافر) يكرر فكرة الموت اذ يقول: [28]

أعرفُ أني هاهُنا نَزيلْ

اعرفُ أني موغلٌ في سَفر طَويلْ

لكنني ألفتُ أن أكل ما أكلُ،

أن أنام حيثما أنامْ

واعتدتُ أن أُبادرَ المسافرينَ الآخرينَ بالسلامْ،

واقبلَ انتظار لحظة الرحيلِ ساعةً وساعتين دونما مَلالْ

وإذ يفوتني القطارُ أبقى في انتظارِ غيره، ولا أضيقْ

بضجة الباعة والمسافرين والمودعينَ،

بل أجد في البحثِ، إذا رغبت، عن رفيق

ولم يَعُدْ يُزعِجني الصعودُ والنزولْ

(27) المصدر نفسه: 70.

(28) بريد القارات: 46-47.

ولا فضولُ عابرين يتقونَ لعبة الفضول

وصرتُ لا أخافُ من مفاجآت آخر الطريقْ

ولا اعتراض حارسٍ يذهب أو يعود

أو زمن مضيعٍ أو أملٍ مَفْقُودْ

فلستُ في نـهايةِ الأمر سوى نزيلْ

يعلم أني موغل في سفر طويلْ

فالسفر يُعدُّ رمزاً لإثارة الواقع المرفوض، فهو عرف انه نزيل على السفر أمامه وهو النظر إلى المستقبل أي البديل ويكتسب السفر هنا دلالة التطلع نحو عالم الإشراق وإلى تغيير الواقع وذلك؛ لان الشاعر بالنهاية لا يخاف من أي مفاجئة من المفاجآت التي تعتريه في أثناء سيرته الثورية في آخر الطريق فدلالة الصعود هنا هي التي جسَّدت قوة الفعل الثوري (يزعجني) فإنه في النهاية يأمل إلى التطلع طالما هو موغل في الاندفاع إلى الأمام دون رجعة.

هكذا أضحت فكرة الحياة بوصفها (رحلة للزوال) وقد استثمر الشاعر هذه الواسطة الحديثة – لا سواها مع إمكان إيراد غيرها - لإحداث انتقاله من الدلالة المعجمية والاصطلاحية (للقطار) إلى دلالة أخرى، وهي دلالة وجودية في هذه الحياة"[29].

(29) أسلوبية البناء الشعري: 137

وإذا كانت الحياة رحلة، فالإنسان هو محض (مسافر) لا يقر له قرار، يتقدم به الزمن مع كل انتقاله، وتتغير الأمكنة التي يقطعها في تلك الرحلة:

أعرفُ أني هاهُنا نَزيلْ

اعرفُ أني موغلٌ في سَفر طَويلْ

فهنا الحرف "في" الدال على مكان ما، مبهم في موضع احتله مسافر، وسينتقل عنهُ، وسيكون الموضع الذي ينتقل إليه "هنا" وهكذا.

ومع ذلك السفر الدائم، تكون الإنتقالة أمراً مفروغاً منه، فهي ستحدث الآن أو بعد قليل، أو بعد كثير، وهكذا لن تكون للزمن قيمة محددة؛ لأن وقوع الرحلة حتمي وزمنها غير محدد، ولكن الشاعر يحاول أن يعبر عن ذلك من وصف حالة رجل مسافر استقر في بلد آخر، وإبراز شعوره، ولكن هذا المسافر يعترف أنه نزيل وأنه موغل في سفر طويل، فهو في حالة سفر مستمر، فهذه الحياة اعتاد عليها، ونراه يلجأ إلى التأكيد كما هو الحال في القصائد السابقة، إذ بدأ بـ أعرف وأعرف ثم أكد هذه الفكرة بتكرار الكلام في نهاية القصيدة؛ لان في "التكرار اللفظي ما يكون الغرض من ورائه مجرد الإغراب في الصورة" [30] فضلا "عن انه من الأسس التي تعمل على تكثيف التماثل في النص الشعري" [31] وعليه "فإن الدلالة التصريحية (للقطار) ممكنة ضمن الدلالة المباشرة، وهذا من سمات الانتقال الدلالي

(30) اللغة الشعرية، دراسة في شعر حميد سعيد، محمد كنوني ط1، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1997: 131.

(31) المصدر نفسه: 122.

الكنائي، حيث يكون المدلولان الحقيقي والمجازي حاضرين، ويمكن القول إنهما مقصودان"[32].

فعبر بذلك الشاعر عن رموزه (الموت) وجعل (المسافر) رمزاً له، فهو قد تهيأ للموت ويعرف أن نهاية الأمر ستكون بهذا الشكل، والشاعر لا يبحث طويلاً في معرفة الموت فهو المجهول الذي لا يعرف عنه سوى أنه موجود.

رمز نزيف الشجر

يقصد بالنزيف هو السيلان فإضافة النزيف إلى الشجر، فيه مفارقة كون الشجر، مادة صلبة وليست سائلة، إن النزيف في الدلالة المعجمية يرتبط بأمرين الأول المادة السائلة، وغالبا الماء والدم، والآخر إفراط سيلان وكثرة خروج [33]. والإفراط في سيل الدم يعني ضعفا وقرب هلاك فمثلا يقول في قصيدته[34]:

شَجرٌ في الضفاف البعيدة

ومَرايا مسندةٌ حوله

ورؤوسٌ تطلُ

يتفصد كالجرح!

هذا دمٌ، بل خليطُ دمٍ ودموع

(32) المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر، أبن الأثير، تحقيق د.أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، ط1، 1959: 3/ 52.

(33) ينظر: لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور) ت 71هـ، طبعة دار صادر، مادة (نزف).

(34) بريد القارات: 27-28.

وزفيرٌ عوالم جاثمة في البواطنْ

يطلقهُ أملٌ في الرجوع

قدسَ السرُ![35].....

يا لهذا الشجرْ

من إله حَزينْ

يا لَهُ مِنْ سَوادْ

يا له من حَجَرْ

نجد أن الإشارة إلى (الدم) تدل على التقاطع بين الدم والدموع؛ لأنهما عنصران دالان على استمراريتها، وبافتقادهما تفتقد هذهِ الحياة، فسقوط الدم والدموع اقانيم دالة على التعلق بأهداب الحياة والرغبة في استمراريتها، يعني تجسيد حالة الصوت في فضاء هذا العالم في (يطلقه أمل) أي أن الدم يأتي بديلاً للحياة آو بعشق الذات وولهها للوطن[36].

كانت الطبيعة للشاعر نبعاً لا ينضب، منها يأخذ الشاعر رموزه فكانت الأرض رمزاً للوطن برز في مجموعته، وهذا يبدو واضحاً من خلال مفردات

(35) ينظر: بريد القارات: 28-29.

(36) اللغة الشعرية دراسته في شعر حميد سعيد، محمد كنوني، 286، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1997.

عناوين قصائده (هذيان الأرض، وأسئلة الأرض) (رماد الأرض، وحاشية الأرض)، ومع ذلك نجد أن الشاعر قد تجاوز هذا الرمز، ليأخذ من (الشجر) رمزاً له ويسقط الشاعر على هذا الرمز أوصافه التي تعبر عن خلجات نفسه، ويبدو أن التيار الوطني قد ساد في مجموعته (بريد القارات) فالأرض كانت في قصيدته رمزاً عن الموت الذي خطف الكثير من الناس وكانت أبرز أسباب الموت الحرب التي عاشها، فالشجر رمز واضح للوطن، فالشجر ينزف وهذا بدوره، ينعكس على الوطن الذي قصده، ومن هنا يتبادر السؤال لماذا رمز الشاعر (للوطن، وللموت) ولم يذكرهما مباشرة؟

فهذا ما يدفعنا إلى القول: إنَّ الشاعر أراد أن يعمق المعنى ويشوق له فهو لا يأتي اليه مباشرة وإنما يوحي به إيحاءً؛ هذا من جهة ومن جهة أن تكرار دلالة (الشجر) في بدء الأسطر، كون تتابعاً ملتزماً، والتكرار الدلالي يؤدي دوراً رابطاً لأنه قد أدى إلى تراكم رمز المفردة (الشجر) ولكن ذلك أضفى ثباتاً في حركة النص. وتشكل الجناسات في القوافي طاقة الحركة، فهي المتغير في ثبات التركيب بين تكرار المفردة والرابطة النحوية. فهناك انبثاث لرمز الشجر في مختلف الظروف تكشفها الضدية بين (الحضور - الغياب) وفي علاقات القوافي بنمطيها (المعرف بأل، والمعرف بالإضافة) وفي ثنائية تلك القوافي في رويها (قواف بائية (ب) وقواف رائية (ر). وإذا مثلت القافية في نص (سامي مهدي) مركز المستوى الجناسي. فانه يستخدمها رمزاً في المستوى التكراري.

وفي الختام فقد خرج البحث باستنتاجات عند تناول الرمز في شعر الشاعر (سامي مهدي) وكشف عن سمة من سمات شعره.

فوجد اتحاداً مميزاً بين الرمز الزماني والمكاني للقصيدة، مع فاعلية متفردة للرمز الزماني الذي شكل إيحاءً شعرياً في رفضه الحاضر واستلهامه الماضي مع تخوف ورهبة وترقب للمستقبل المجهول عبر رمز الموت الذي يطارد الإنسان.

كما أوضحت الدراسة أن الشاعر استطاع أن يصل إلى مستوى متقدم في استغلال هذهِ الوسيلة الأسلوبية للتعبير عن مشاعره ونقل تجاربه ومواقفه بمجموعة من الألفاظ والصور التي تتكرر في شعره وتأخذ بمدلولات خاصة – يفرضها السياق - من خلال استخدامه الكثير من الدوال الزمانية والمكانية والطبيعية والإنسانية.

وتجدر الإشارة إلى أنه في استعماله اللفظة استعمالاً رمزياً في قصيدة ما، لا ينهي دورها، ويجعلها سجينة تلك المعاني مهما كانت متحررة أو مطلقة، لذلك تبقى اللفظة مادة صالحة لتصبح رمزاً في قصيدة ثانية تلحق فيها من جديد.

Abstract

Symbolism in Sami Mahdi's Poetry

In His Poetic Collection (Continents Mail)

Hamad Mohammad Fathi [(*)]

Symbolis considered as a mean of referring with emotion through psychological raising not through naming and declaring . It is considered one of the most famous poetry forms and techniques in Modern Arabic poetry. The poet intends using the word or phrase to refer to another thing, the symbol is contrasted with metaphor and comparison , lacking to similar and may be described as a kind of mask blinding these ideas.

So the symbolis always a mean to transporting emotions and rare complex conscious cases, and not as a mean of describing an ideology, because ideology has its fixed symbols to express any style of idea. Man cannot accept that the symbol is calling just by emotions, because each nation's literature has its traditional symbols In Arabic there are Sword, Crescent. All these symbols bears meanings that all knew but the symbolic poet has his special way in building his symbols .The symbol is a kind of trying to pass the reality that can not talk about in a direct way for different reasons to reflect the reality in a way of expressing.

(*) Dept. of Arabic - College of Arts / University of Mosul.